الأخلاق عند حسام الآلوسي
دراسة فلسفية

د. محمد فاضل عباس
مدرس في قسم الفلسفة – جامعة بغداد

حسام الآلوسي أستاذ الفلسفة في جامعة بغداد ، يمارس التدريس فيها منذ أواسط الستينيات وحتى هذه الساعة ، ينحدر من أسرة دينية لا تقرب الفواحش ما ظهر منها وما بطن وهم في الأسحار يذكرون وصلاة الفجر يقيمون ، ولأسرة الآلوسي اتجاه ديني تمثل بأبي الثناء شهاب الدين محمود الآلوسي (١٨٠٢ – ١٨٥٣) الذي عمل في التدريس والإفتاء وعُين أميناً للإفتاء ثم عُين مُفتي الحنفية في بغداد ، له مؤلفات عديدة منها (روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني) و(سفرة الزاد لسفرة الجهاد) ، كان أبو الثناء منتمياً للطريقة النقشبندية في التصوف ، إذ درس التصوف على يد شيخها خالد النقشبندي ، ولأسرة الآلوسي مفكر آخر هو محمود شكري الآلوسي (١٨٥٦ – ١٩٢٤) صاحب كتاب ٠ بلوغ الإرب في معرفة أحوال العرب) ولم يكن الآلوسي الثاني خارج الدائرة الدينية ، بل كان أشد تمسكاً بالاتجاه الديني من سابقه[١] .

كما لا يفوتنا العلامة علي علاء الدين الآلوسي القادري الحسني وهو جد حسام الآلوسي ، كان قاضي حديثة وسامراء وتكريت وما حولهما ، وأنتخب أحد ثلاثة يمثلون العراق في مجلس المبعوثات في الأستانة ، وله شعر كثير يعرفه أهل تكريت والموصل لم يطبع منه شيء وله عدة كتب في الفقه .

ولأسرة الآلوسي أيضاً المربي المعروف والأديب جمال الدين الآلوسي (١٩٠١ – ١٩٩٣) وهو خال حسام ووالد زوجته وابن عم والده ، له مكانة في تربية أجيال ، وكان أستاذاً في دار المعلمين ببغداد وله مؤلفات مخطوطة في الأدب واللغة والحديث والسيّر ، طبعت له عدة كتب كل واحد منها عن أحد كبار الأدباء والمفكرين العرب كالعقاد ومحمد كرد علي والزيّات وطه حسين وآخرين عدة ، وله كتاب عن الشعر ، كان بيته ديواناً ومنتدى لكبار العلماء والأدباء ورجال الدين والتربية ، مذكراته شاهد على العصر خلال مائة عام تقع في جزئين وهي الآن مخطوطة محفوظة عند حسام الآلوسي .

أما والد حسام ، محيي الدين فهو الأوسع شهرة على نطاق العامة ورجال الطرق الدينية والصوفية ، يحتفظ ابنه حسام بعدة كتب لأبيه محيي الدين في أمور الفقه والدين ، كان ديوانه مجلس لقاء للورع والتفقه يؤمه أهل الورع ومن يتبع طريقته القادرية من الأرياف حتى بعض قرى وبلدات السليمانية . اعتكف لمدة شهرين مع أحد الصوفية في أحدى مغارات تكريت ، ومما يذكره الدكتور حسام عن أبيه من أن علي الوردي وبعض طلبة الفلسفة زاروا تكريت وحضروا مجلسه عصراً وجرت نقاشات حول التصوف والظواهر الباراسيكولوجية وكان حسام صغيراً في السنة الرابعة ثانوي آنذاك •.

نحن هنا إزاء الآلوسي حسام محيي الدين الآلوسي الذي نشأ نشأة الأوالسة الذين مر ذكرهم لكنه لم يتخذ من الاتجاه الديني تخصصاً له لا على صعيد العمل ولا على صعيد العقيدة ، آمن بالفلسفة عقيدة وعملاً وبالمادية التاريخية منها على وجه الخصوص ، حصل على شهادة الدكتوراه في الفلسفة من جامعة كيمبردج عام ١٩٦٥ وعاد بها إلى بغداد ليمارس تدريس الفلسفة في جامعتها ، تنقل في دول عربية عديدة لتدريس الفلسفة منها : ليبيا والكويت واليمن ، وشغل منصب رئاسة قسم الفلسفة فيها وفي بغداد لسنوات عديدة ، تخرج على يديه آلاف الطلبة في الدراسات الأولية وعشرات في الدراسات العليا إن لم يكونوا مئات ، إذ مارس الآلوسي التدريس والإشراف والمناقشة في الدراسات العليا على مدى أكثر من ثلاثين سنة ، له عشرات البحوث والمقالات جُلها في الفلسفة من الفلسفة إلى الفلسفة ، وله عشرات الكتب التي منها على سبيل الذكر لا الحصر (حوار بين الفلاسفة والمتكلمين) و(من الميثولوجيا إلى الفلسفة) و(ودراسات في الفلسفة الإسلامية) و(الفلسفة والإنسان) وغيرها وغيرها ، لم يقف الآلوسي عند حد من حدود الفلسفة بل كتب في مختلف تخصصات الفلسفة ، إذ كتب في المعرفة والوجود والفن والكلام والتصوف وتعداها ليكتب في قضايا الفكر العربي المعاصر ولا ننسى أن للآلوسي مجاميع شعرية نتمنى أن يكتب لها النشر ليطلع بها القارئ على الآلوسي الشاعر الرومانسي الحائر الخائف المترقب المؤمن الشاك ⊗ .

ومن كتب الآلوسي العديدة كتابه (التطور والنسبية في الأخلاق) والذي سنقف عنده وقفة فلسفية ولنا قصد في قولنا دراسة فلسفية ، فمن وجهة نظرنا أن الدراسة الفلسفية تتضمن التحليل والتعليل والتلخيص والاختصار كما إنها لا تخلو من النقد والتقييم والشرح والتفسير ، لذلك جاءت هذه الصفحات دراسة فلسفية لتضم أكبر قدر من مناهج البحث والاستقصاء .

تؤرقنا كثيراً مثلما تؤرق الفكر العربي المعاصر قضية الإبداع والجديد والهوية وما إلى ذلك من العقد والأمراض التي يعاني منها الفكر العربي المعاصر ونعاني نحن منها أيضاً حتى بتنا متشائمون وخائفون من الكتابة ، فكلما شرعنا في الكتابة في موضوع من موضوعات الفلسفة اكتشفنا بعد وقت قصير أننا

نجتر في هذه الموضوعات ونُعيد ونُصقل فيها بلا دراية منا ثم نتوقف عن الكتابة ، فماذا تكتب بعد كل الذي كُتب في مجمل تاريخ الفلسفة قديمها ووسيطها وحديثها ومعاصرها ، أخلاقها ووجدوها ومعرفتها وجمالها ، فهذه مسألة لا بل مشكلة يعاني منها الصادقون المخلصون الذين يريدون الكتابة في أي موضوع من موضوعات الفلسفة فما بالك وأنت تكتب في الفكر العربي المعاصر ، عزاؤنا في ذلك الاختصار والتلخيص والفهم الصحيح ونقد هنا وتحليل هناك عسى أن يستفيد المهتم بشؤون الفلسفة من هذا التلخيص وذاك النقد والتحليل .

يعد مبحث الأخلاق من المباحث الرئيسة في الفلسفة عامة وفي الفكر العربي المعاصر خاصة ، ومن الذين اهتموا بالأخلاق حسام الآلوسي ، فسنحاول أن نسلط الضوء على تجربته في الكتابة عن الأخلاق من خلال كتابه (التطور والنسبية في الأخلاق) وقبل أن ندخل في رؤية الآلوسي عن الأخلاق يجب أن نمر على بعض من تعريفات الأخلاق .

الخلق في اللغة بضمتين وسكون الثاني تعني الطبيعة والدين والمروة وجمعها الأخلاق أما عند العلماء فتعني ملكة تصدر بها عن النفس الأفعال بسهولة من غير تقدم فكر وروية وتكلف[٢] .

والأخلاق تعني : منظومة قواعد السلوك أي أنها علم عملي ومعياري . عملي لأنه لا يقتصر على المعرفة والإفهام بل يتناول توجيه العمل وتحقيق نتيجة . ومعياري لأنه يحدد الهدف المراد بلوغه ويحدد في الوقت ذاته الوسائل المؤدية إليه [٣] .

كما يعرف المجال المهتم بدراسة الأخلاق أحياناً بعلم الأخلاق وعلم السلوك وفلسفة الأخلاق والحكمة العملية أو الحكمة الخلقية ، أو الفلسفة الخلقية والمقصود بكل هذا هو : معرفة الفضائل وكيفية اقتنائها لتزكو بها النفس ومعرفة الرذائل لتتنزه عنها النفس [٤] .

والأخلاق علم موضوعه الحكم التقويمي القائم على التمييز بين الخير والشر [٥] ، كما أنها مجمل التعاليم المُسلَّم بها في عصر وفي مجتمع محددين ، والمجهود المبذول في سبيل الامتثال لهذه التعاليم ، والحض على الاقتداء بها[٦]

أما عن أقسام الأخلاق فلم يختلف أحد على أنها في قسمين : الأول نظري يضع المبادئ والنظريات التي يستند إليها السلوك الإنساني والثاني عملي يبحث في التطبيقات العملية لهذا السلوك[٧] .

نكتفي بهذا القدر من هذه التعريفات اللغوية والاصطلاحية لمفهوم الأخلاق ولو أردنا المزيد لملأنا عشرات الصفحات عن التعريفات المقدمة لمفهوم الأخلاق والخلق والنظرية الأخلاقية وعلم الأخلاق في الكتب والمؤلفات التي ألفت عن الأخلاق لكننا نرى لا حاجة لنا بها من وجهين الأول : إن معظمها إذا لم

يكن كلها متشابهة ويمكن اختصارها بالذي جئنا به والثاني : تماشياً منا مع التلخيص والاختصار والتبسيط رافضين التعقيد والإكثار متجنبين قدر الإمكان الاجترار والتكرار .

بعد أن أوضحنا ما المقصود بالأخلاق نحاول الآن أن نوضح ما المقصود بالتطور ، فالتطور : ((هو افتراض فلسفي قديم يرتأي أن الأنواع الحية ليست ثابتة على ما هي عليه ، ويعود هذا الافتراض إلى فلاسفة يونان ولاتين أمثال أناكسيماندر ولوكريس ..... وتطبق لفظة التطور على كل تغيير يقع تحت نظر المراقب على امتداد زمني ، وفي أي نطاق كان من الظواهر الطبيعية والبيولوجية والإنسانية))[٨] .

أما لالاند فير في موسوعته فيؤكد على : أن التطور (النشوء) هو : نمو مبدأ داخلي ، كامن في البداية ، يتحين شيئاً فشيئاً ، وينتهي به الأمر إلى العلن وهو تحول تدريجي ، ومنظور إليه ، عموماً كتحول بطيء جداً ، أو متكون من تغيرات أولية شديدة الضآلة ، لا تكاد تُلحظ ، وإنه سلسلة تحولات في اتجاه واحد [٩] .

يرى برتراند رسل : إن نظرية التطور ترتد في بدايتها إلى أنكاسيمندر ، وكل ما فعله داروين هو أنه قدم كمية هائلة من التفصيلات الواقعية المبنية على ملاحظته الدؤوب للطبيعة أما براهينه على التطور فإن قيمتها تتفاوت ، ولكنها قطعاً ترتكز على أسس أقوى من تلك التي ارتكز عليها أناكسيمندر ، وعل أية حال فإن النظرية الداروينية كانت هي التي طرحت فرض التطور لأول مرة على ساحة النقاش الشعبي الواسع ، ولما كانت تفسر أصل الأنواع على أساس الانتقاء الطبيعي من كائن عضوي كلي قديم ، فإنها كانت معارضة للقصة التي تضمنها سفر التكوين ، والتي كانت تدافع عنها الكنيسة الرسمية ، وقد أدى ذلك إلى صراع مرير بين الداروينيين وبين المسيحيين [١٠]

كان للتطورية الداروينية ردود فعل في كل المجالات ومنها الأخلاق حتى أخذ بها اليسار بدعوى تقدميتها وقولها بالصيرورة والتطور من الأدنى إلى الأعلى حتى أن ماركس أراد أن يهدي مجلده الأول من كتابه (رأس المال) إلى داروين وكان من الطبيعي أن يبين داروين أن تنازع البقاء لا يتناقض مع القول بالأخلاقية ، ذلك لأن الصفات التي توجه الانتخاب الطبيعي ليست هي الصفات التي يفيد منها الفرد وحده ولكنها الصفات التي تعم فائدتها النوع كله ، طالما أن الاجتماع هو العامل الفعال في بقاء النوع ، وضرب داروين لذلك مثالاً بحب الوالدين للأبناء وما نشاهده من تعريض بعض الحيوانات نفسها للخطر والموت لإنقاذ غيرها، ومن ثم نلمس في الإنسان صفات لا تفيد الفرد ولكنها تنفع النوع وتتوارثها الأجيال ، وهي ما نسميه بالفضائل [١١] .

يريد دعاة الأخلاق التطورية أن يجعلوا منها علماً قريباً من العلوم الطبيعية ، أن يجعلوا منها أخلاقاً تمتاز بما تمتاز به العلوم من الدقة والمضبوطية وإمكانية تطبيق المناهج عليها أن يجعلوا منها علماً حسياً تجريبياً بعيداً عن مجال الميتافيزيقا، وهم بذلك ينزعون عنها صفة الاطلاقية والعمومية ويدخلونها في مجال النسبية والاحتمالية .

فالتطوريون لا ينظرون إلى الأخلاق إلا علماً من طراز العلوم الواقعية لأنها خاضعة للتطور حالها حال الظواهر الطبيعية الأخرى فهم بذلك يستبعدون المعاني والمبادئ الميتافيزيقية ولا يعدون سيرة الإنسان إلا حالها حال سيرة الكائنات الحية الأخرى ، ووفقاً لهذا القول فالأخلاق عندهم : ((جملة من الأفعال الخارجية المتجهة مباشرة أو بالواسطة إلى صيانة الحياة وتنميتها)) [١٢] .

يرى أصحاب التطور : أن الملائمة بين الإنسان وبيئته لم تحصل أول الأمر إلا حصولاً جزئياً ، وقانون التطور هو الذي يضمن أن تتم الملائمة في المستقبل ، فقد تحقق التعاون بين بني البشر تدريجياً من الحالة العسكرية إلى الحالة الصناعية ، فالأولى تقوم على الحرب والإكراه والقانون العرفي فتتضمن تبعية الأفراد للجماعة تبعية دقيقة والثانية تقوم على العمل والتعاقد فتفسح للتعاون الإداري ، ومن الوجهة العاطفية أن الإنسان قد مر بحالة أولى كان يطلب فيها منفعته الذاتية ، وهذه مرحلة الأنانية ، ثم فطن إلى أن منفعته تزداد بالتعاون مع إخوانه ، فأحبهم لهذه المنفعة ، فكانت مرحلة الأنانية المختلطة بالغيرية ، ثبت فيها بالوراثة هذا الجمع بين المنفعتين حتى بدأ العمل لمصلحة الغير أمراً مستحباً ، وهذه المرحلة ما تزال للآن ، وهي مرحلة الصراع بين الأنانية والغيرية ، وما الشعور بالواجب عند التطوريين إلا مظهراً من مظاهر سلطان التطور الماضي في أنفسنا ، ويعتقدون أنهم سائرون شيئاً فشيئاً إلى المرحلة ثالثة وأخيرة تتحد فيها المنفعتان تمام الاتحاد فتسود الغيرية وتصير الأخلاق الفاضلة طبيعية في الإنسان وتمحى فكرة الواجب[١٣] .

أما عن أخلاق التطور فيرى سبنسر وهو خير من يمثلها : إن القانون الأخلاقي الذي يفشل أمام امتحان الانتخاب الطبيعي وتنازع البقاء مصيره الفشل والأخلاق كأي شيء آخر تكون خيراً أو شراً بمقدار ملائمتها أو عدم ملائمتها لغايات الحياة وأعظم الأخلاق واسماها هي التي تساعد على اعظم وأكمل الحياة[١٤] .

وبهذا فالأخلاق يجب أن تحقق للإنسان ما يصبو إليه من راحة وسعادة فهي وسيلة ، أداة يطوعها الإنسان لصالحه لا أن تطوعه نظم جاهزة يشقى بها وبتطبيقها ولا تدر عليه إلا الشقاء والشعور بالخطيئة والذنب ، وهذه نظرة براجماتية للأخلاق ، فنحن مسؤولون عن قيمنا وعاداتنا ونحن نضعها كي تنسجم مع صالحنا وصالح المجموع ، وبهذا القول فهي دعوة للأخلاق الوضعية النسبية ، ورفض للأخلاق المثالية

بكل أشكالها ورفض لما ينبغي أن يكون عليه الفعل الإنساني الذي يفترض نموذج للفعل يجب أن يسير بموجبه الإنسان وإذا ما خالفه أصبح فعله لا أخلاقياً .

أما الآلوسي فهو يبرر تأليفه لهذا الكتاب بقوله ((معظم ما كُتب بالعربية عن الأخلاق هو تأريخ لتياراتها ولمذاهبها ولأشخاصها ، لا نقول هذا على سبيل الاستهانة ، فهذا أمر جليل وله أهميته وجدواه ، لكننا نعتقد أن هذه المرحلة يجب أن تُعبِّر أو أن يسير بمحاذاتها خط آخر ، يقوم بدراسة مشكلات الفلسفة عموماً والمشكلات الخلقية ، بشكل موضوعات أو محاور أو طروح وقد أعتبر الدكتور مدكور في مقدمة كتابه (في الفلسفة الإسلامية منهج وتطبيق) الجزء الثاني ، وكذلك في مشاركته بمؤتمر الفلسفة في بيروت الماسح للإنتاج الفلسفي العربي حتى سنة ١٩٦٠ ، إن أحد دلائل التطور والنضوج العربي في تناول الفلسفة هو معالجة موضوعات ومشكلات ، وليس تناول تأريخ الفلسفة بشكل أفقي))[١] .

إن مسألة النتاج الأخلاقي في الفكر العربي المعاصر ما هي إلا جزء من نتاج الفكر العربي المعاصر متهمة بما يتهم به الفكر العربي المعاصر من عدم الإبداع وغياب الجديد وبنظرة سريعة للنتاج الأخلاقي في الفكر العربي المعاصر فإنه حاله حال معظم النتاج أما ناقل للنظريات الأخلاقية التي ظهرت في أوروبا وأمريكا ومحاولاً تطبيقها على الفكر العربي المعاصر أو شارحاً ومحققاً للنتاج الأخلاقي في التراث العربي الإسلامي ، والسؤال هل خرج الآلوسي من هذا المسار في نتاجه الأخلاقي ؟

يؤمن الآلوسي بنسبية الأخلاق وتطورها مستعيناً بالمصادر التي تعينه في رؤيته الفلسفية في نسبية الأخلاق وتطورها مؤكداً على اعتماده في كتابه هذا على دراسة اجتماعية تأريخية ليس لأخلاق البشر فقط ، بل ولعاداتهم ومراحل تفكيرهم ولأنماط سلوكهم ليقدم لنا نتيجة سابقة لأوانها تتفق في نتيجتها الأولى مع ما توصل إليه التطوريون وفي نتيجتها الثانية مع ما توصل إليه الماركسيون إذ تفيد هاتان النتيجتان :

١. إن الإنسان وسلوكه مرحلة متطورة من الحيوان الراقي وسلوكه .
٢. إن الأخلاق مسألة تاريخية اجتماعية وأن تجاهل هذين الأمرين أحد أكبر العوامل التي أوقعت بعض المدارس الفلسفية الأخلاقية في القول بنظرية الضمير ومطلقية القيم الخلقية[٢] .

ثم يعرض الآلوسي خطته في الكتاب مبيناً أنواع السلوك الاجتماعي لدى الحيوانات ، ولا غرابة في ذلك فالآلوسي سنجده يتبنى وجهة نظر التطوريين في الأخلاق ، فهم يعتقدون أن الإنسان بكل ما يمتلكه يعد مرحلة متطورة راقية للحيوان والخلاف بينه وبين الحيوان بالدرجة لا بالنوع ، وأن ما يمتلكه الإنسان

من قيم أخلاقية وما يقوم به من سلوكيات هو الآخر جزءاً لا يتجزأ من مكونات الإنسان ، لذا كان من الضروري أن يمر الآلوسي بسلوكيات بعض الحيوانات كمقدمة وتمهيد للدخول بدراسة السلوك البشري .

يعرض الآلوسي رأيين مختلفين لمدرستين مختلفتين في الأخلاق الأولى : ترى بأن الوازع الأخلاقي أو الضمير أو الواجب الكنتي فطري ، والفطري هو القبلي الذي يفطر عليه الإنسان قبل التجربة ، أما الرأي الثاني الذي يرى بأن الضمير أو مجموع ما يمتلك الإنسان من قيم أخلاقية (عادات وتقاليد) تتشكل من خلال تنشئته وبيئته وما تحمل هذه البيئة من عادات وتقاليد وأعراف ، أي أن الضمير يتكون بعد الولادة بالاكتساب لا فطرة ، وهذا يعني أن الضمير الذي يمثل مجموعة القواعد والأحكام الأخلاقية نسبي متغير ، مختلف من بيئة لأخرى ، ومن زمان لآخر ، ومن مكان لآخر ، وهذا ما يراه القائلون بنسبية الأخلاق ، والنسبية مثلما قلنا تعني التغير والتغير يعني الانتقال من حال إلى حال ، لكن هذا الانتقال عند التطوريين يعني التطور المرادف للتقدم لا التقهقر .

ومما لا شك فيه أن الآلوسي يتفق كل الاتفاق مع القائلين بنسبية الأخلاق والنسبية هنا تستلزم القول بالتطور ، فالآلوسي من أصحاب النسبية والتطور في الأخلاق لا بل إنه يذهب أبعد من ذلك عندما يقرر نسبية العقل البشري في قوله : ((ولذلك سنسند هذا (القول بنسبية الضمير) بالعديد من الأمثلة من عادات الشعوب وأحكامهم ومؤسساتهم للدلالة على هذا وعلى نسبية العقل البشري نفسه))[١٦].

ولا يفوت الآلوسي في هذا الكتاب عرض أهم المراحل التي مر بها المجتمع البشري من وجهة نظر الماركسية ابتداءً بطور المشاعية البدائية والعبودية فالرق أو الإقطاع فالبرجوازية ثم الاشتراكية لينتهي بكتابه هذا بالنتائج التي توصل إليها .

يبدأ الآلوسي بالسلوك الاجتماعي للحيوان ومستوى الذكاء عنده حتى يتوصل : إن للحيوانات العليا على أقل تقدير حياة اجتماعية مهما تكن بساطتها فإنها حياة تتضمن الحب والكراهية والعطف والمشاركة والغيرة ، وحتى الذكاء[١٧] ، أما عن اجتماعية السلوك البشري فيرى الآلوسي : مما لا شك فيه أن الإنسان لا يمكن له العيش إلا ضمن مجتمع معين ، فالإنسان كائن اجتماعي بغض النظر عن أنه مدني بطبعه أو بغير طبعه لكنه مدني فحسب ، إذ يقول الآلوسي :((إن الإنسان لا يوجد بدون مجتمع ، وعلى أن هذه الاجتماعية هي أصل عاداته وأخلاقه ولغته وفكره . المجتمع هو المدرسة التي فيها تعلم الإنسان أن يميز بين الصواب والخطأ))[١٨] .

كما يرى الآلوسي : إن أغلب الفلاسفة ومنهم أرسطو ومعظم من جاء بعده من الفلاسفة في العصر الوسيط المسيحي منه والإسلامي قد أكدوا على اجتماعية الإنسان عدا ابن طفيل رغم اهتمامه بالأثر الاجتماعي في قصته حي بن يقظان[١٩] .

ويعود الآلوسي ليقول : ((إن حي بن يقظان بطل رواية ابن طفيل الفيلسوف الإسلامي ، لا يمكن أن يكون غير حيوان أعجم كما هو حال أشخاص وجدوا في غابات وربتهم حيوانات علماً بأن أرسطو نفسه والذي يتأثر به ابن طفيل كثير في " تهذيب الأخلاق " يقول : إن ذلك الذي لا يستطيع أن يعيش في المجتمع هو إما وحش أو إله وهو ليس جزءاً من الدولة))[٢٠].

نحن نعتقد أن قصة حي بن يقظان لابن طفيل لا يمكن أن تُقرأ إلا رمزاً ولا يمكن أن نَحملها محمل ظاهر النص ونقف عند حرفية النص ، بل علينا إذا ما أردنا أن نصل إلى مراد ابن طفيل أن نذهب بعيداً إلى المعاني الهاجعة خلف الدلالة الحرفية للنص ، وإذا أردنا أن نظلم ابن طفيل نحاكم نصه الأدبي الفني الفلسفي محاكمة " آراء أهل المدينة الفاضلة للفارابي " على سبيل المثال ، فابن طفيل أراد الدعوة إلى الدين الطبيعي ، فإن حي توصل إلى الذي توصل إليه آسال بلا مجتمع بلا تعاليم بلا واسطة ، وإنه قد رأى الذي سمع به آسال . ومن ناحية أخرى نحن نعتقد أن ما جاء في قصة حي بن يقظان يتفق مع ما جاء به الآلوسي ويعزز رأيه وإيمانه بالتطور ، خصوصاً التطور البايولوجي الانفعالي الحسي وحتى السلوكي منه ، وإذا أردنا أن نُحمل النص أكثر مما يحتمل وأن نبالغ في التأويل والمجاز نستطيع أن نثبت أن هنالك بعداً أخلاقياً في قصة حي بن يقظان على صعيد علاقته بأمه الضبية وحزنه عليها عندما ماتت وكذلك سنجد سلوكاً لدى الضبية في بكائها عندما فقدت طلاها ، أما إذا أردنا القراءة الحرفية الظاهرية لنص ابن طفيل فلا مناص لنا من الاتفاق كل الاتفاق مع الآلوسي .

لكننا إذا عدنا إلى مخطوط الآلوسي وهو الآن تحت النشر (محاضرات في تاريخ الفلسفة الإسلامية) الجزء الثالث منه الخاص بالفارابي وابن سينا وابن طفيل نجد الآلوسي لا يقرأ ابن طفيل إلا قراءة رمزية ذاهباً إلى المعاني الهاجعة خلف ظاهر وحرفية نص ابن طفيل " حي بن يقظان " ، مؤكداً على : أن ابن طفيل يفترض شخصاً يعلم نفسه بنفسه وأنه قد أكد على دور العقل البشري في المعرفة الإنسانية ، ومن غير الممكن أن يكون حي غير شخصاً افتراضياً لا وجود له في الحياة المعاشة[٢١] ، كما أكد الآلوسي أن هنالك إرباك في النص السابق يعود للتترجم وهو براء منه .

يعرض الآلوسي بعد ذلك الرأيين الخاصين بالضمير ونشأته أو بالوازع الأخلاقي : الأول الذي يرى أن الضمير ليس فطرياً ، بل هو تاريخي النشأة على النطاق الاجتماعي خلال العصور فهو متغير ومتنام وأن القيم الأخلاقية يمكن إرجاعها للتجربة كمصدر لها ، ومن القائلين بهذا الرأي الفلاسفة التجريبيون إلى جانب التطوريون ، أما الرأي الثاني فإنه يرى أن الضمير فطري ويسمى أحياناً بالحاسة السادسة ، وأن القيم الخلقية يدركها العقل بداهة ، لا تحتاج إلى التجربة وأنها ثابتة مطلقة غير خاضعة للزمان والمكان ، ومن القائلين بهذا الرأي العقليون والحدسيون[٢٢] .

أما الآلوسي فإنه يتفق مع التجريبيين والتطوريين بالقول بنسبية الأخلاق إذ يقول :

((التصورات والقيم والوازع الخلقي هي أمور نسبية تابعة للزمان والمكان ونوع المجتمع الذي تنبع أو تتحقق فيه ، إن هذه جميعاً هي نتيجة للظروف الاجتماعية الطبيعية التي يتفاعل معها الإنسان ، إنها جميعاً تُكتسب لا تورث سوى وراثة اجتماعية من خلال العادات والمؤسسات والوجود المادي الممثل لها ، وهذه المدرسة تقدم تفسيراً اجتماعياً نفسياً لنشأة الأخلاق والضمير والوازع الأدبي عموماً))[٢٣] ، وهذا رأي علمي موضوعي ويمكن أن نعده فلسفياً عقلياً مثلما نرى نحن الفلسفة والعقل ، الفلسفة التي لا تكون إلا ضمن الإطار العلمي لها لا ضمن الإطار الميتافيزيقي والعقل الذي لا يكون إلا محكوماً بطرائق العلم الصحيح .

أما عن النسبية التي تبناها الآلوسي فإنها ليست النسبية المطلقة التي تعد الأخلاق كلها أوامر وتعبيرات عن رغبات وأنها عبارات لا تحتمل صدقاً ولا كذباً ، وهذا يعني عدم إمكان قيام أخلاق على الإطلاق وهذا ما ذهب إليه السوفسطائيون ، فالنسبية التي يتفق معها الآلوسي متبنياً لها هي ما ذهبت إليه المادية الديالكتيكية إلا أن المطلق ينشأ من خلال النسبي ، وأن المطلق لا يتحقق كاملاً ولكنه في عملية نمو وأتساع أفقي وعمودي باستمرار ، فإن النسبية عند المادية الديالكتيكية ليست مطلقة[٢٤] .

ثم يعرض الآلوسي التطور عند سبنسر مؤكداً بعد العرض على أن التطورية ((تلتقي معنا في القول بوجود تغير وتطور يشمل الكون والمادة والعضويات معاً))[٢٥] .

لكن الآلوسي يرى ما يراه كورنفورث من أن سبنسر لم يستطع أن يفسر لنا لماذا تمر المادة والموجودات خلال تكاملها الأخذ بالازدياد بهذه العملية فإنه لا ينسب للمادة أية خصائص يفسر بها التغير والصيرورة حتى يعود ليتحدث عن قوة غير قابلة للفهم جبارة تقع خارج المادة وأن إدراك هذه القوة هو الإدراك الذي يقوم عليه الدين أما الآلوسي فإنه يتماشى مع المادية الديالكتيكية في تفسيرها الديالكتيكي الذي اكتشف خصائص المادة الداخلية مثل الحركة الذاتية للمادة ومبدأ بقاء المادة وقانون التحولات الكمية – الكيفية ، فإن المادية كما يعتقد الآلوسي قد تمكنت من تقديم مساعدات كبيرة مكنت لنظرية التطور في الأحياء أن تقوم على أساس تفسيرات ذاتية للمادة وللأحياء[٢٦(١)] .

وهنا يكمن مذهب الآلوسي في الأخلاق ، فالآلوسي يؤمن بأن القيم الأخلاقية من عادات وأعراف قيم متغيرة متطورة حالها حال التغير والتطور الذي يطرأ على الكائن الحي وأن هذه القيم اكتسبها الإنسان بفعل احتكاكه بالطبيعة ثم احتكاكه ببني البشر أمثاله حتى تكونت ونمت وتطورت هذه القيم حسب حاجاته وأنه يرفض رفضاً قاطعاً أن تكون هذه القيم سابقة على التجربة ، فطرية مغروسة في الإنسان قبل الولادة ، لكنه بالمقابل يختلف مع التطوريين الذين يرون أن هنالك قوة ما خارج المادة تفعل فعلها فينا وأن هذه

القوة عصية على الفهم ، هذا ما يرفضه الآلوسي متفقاً مع الرؤية الماركسية التي تمكنت من الوقوف على خصائص المادة الداخلية والتي تقف وراء التغيرات الحاصلة فينا عبر قوانين حفظ المادة والتحول الكمي – الكيفي .....الخ ، إذن يمكننا القول : أن مذهب الآلوسي في الأخلاق يتكون من جزأين الجزء الأول : تطوري نسبي ، الجزء الثاني : مادي ديالكتيكي ، فالآلوسي تطوري نسبي ومادي ديالكتيكي في الأخلاق وهذه الرؤية الأخلاقية لم تكن إلا رؤية منسجمةً مع المنهج التكاملي الذي يتبناه الآلوسي مؤمناً بجميع العلوم طريقاً إلى الحقيقة لا يقصي منها علماً من المجال المعرفي .

لم ينسَ الآلوسي الحديث عن الأخلاق عند الوضعية المنطقية المعاصرة وعند الحدسيين وعند كانت وفصّل القول بها لكننا لا نرى حاجة لإعادة آرائهم في هذا المقام ، إذ كان غرض الآلوسي من طرح هذه الأفكار هو تقديم آراء معارضيه - إذا جاز التعبير - في الأخلاق والوقوف على ما يراه هو ، وهذه طريقة علمية موضوعية في الكتابة فأنك تعرض جميع الآراء التي تتفق معك والتي تختلف ثم تقدم أنت وجهة نظرك ، وللقارئ الحق في أن يعتقد ما يعتقده⊗ .

يعرض الآلوسي بعد ذلك التفسير المثالي للوعي الإنساني محدداً عدة عوامل تقف وراء هذا التفسير ، ثم يعرض الرأي المادي المتمثل بالمادية العلمية تحديداً مؤكداً على : إن المادية العلمية قد أدخلت مفاهيم جديدة إلى فلسفة التاريخ وعلم الاجتماع كفكرة البنى الفوقية والتحتية والحتمية ودور الإنتاج في العلاقات الاجتماعية فالإنتاج يفرض نوعاً من العلاقات بين طبقات المجتمع[٢٧] ، لينهي العرض بقوله ((إن الذهن أو العقل البشري ليس مستقلاً عن الظروف الموضوعية التي تعرض نفسها عليه ودون أن يدري منها شيئاً ليست إرادة الناس هي التي تحدد بصورة اعتباطية العلاقات الاجتماعية ، بل أن وعي الناس يحدده واقع المجتمع المادي الذي هم أعضاء فيه ، وهذا المجتمع ليس نتيجة لا شيء ، أنه مجموعة العلاقات التي تكونت لتؤمن للناس نضالاً ينتصر على الطبيعة ، وهي علاقات يحددها بالضرورة مستوى قوى الإنتاج التي يملكها الناس وأفكار الناس الاجتماعية هي انعكاس لهذا المجموع المعقد ، وإذا كان للناس أفكار ورغبات مختلفة في عصور مختلفة فذلك لأنهم يناضلون ضد الطبيعة بصورة مختلفة من أجل معيشتهم ولهذا ارتدت علاقاتهم الاقتصادية طابعاً مختلفاً كما يتضح من صور المجتمع والعلاقات في المجتمع البدائي المشاعي ثم العبودي))[٢٨] .

وللآلوسي قصد في العرض التاريخي للأخلاق لأنه يرى ما يراه كامنكا قائلاً ((الخلاصة من كل ما سبق هو أن معالجتنا للأخلاق وتطورها ، ولتأريخ الفكر يصبح بلا معنى ولا خطة إذا لم يكن على أساس معالجة تأريخية ، مستعرضة للتشكيلات الاقتصادية الاجتماعية الكبرى ، كما أن ما يبق يبين " أن المبادئ الخلقية والحقوق الدستورية والتشريعات القانونية ليست معايير عقلانية أو خالدة تسبق – على

نحو منطقي – المجتمع وتحدد طبيعته من أعلى ..... إن المبادئ والقوانين والحقوق تنتج عن طرق الحياة ووسائل المعيشة والنشاطات الاجتماعية ، وليس العكس ، أي أن الحقوق تمت إلى وظيفة أو اتجاه خاص ، أو نشاط أو طبقة ، وكما أن التوزع الاجتماعي أو طبيعة الوظائف والطبقات أو الاتجاهات تتغير فإن المبادئ الخلقية " المُتَقَبلة " والحقوق الدستورية والأنظمة القانونية تتغير))[٢٩] .

ومرة أخرى يعرض الآلوسي عرضاً تاريخياً للخطوط العريضة والأساسية التي مرت بها البشرية ، متبنياً التقسيم الماركسي للمراحل الخمس التي مرت وستمر بها البشرية ، إذ يقف الإنتاج وراء الانتقال من مرحلة إلى مرحلة وصولاً إلى الاشتراكية التي يتحقق فيها الاستغناء عن الغير عبر الملكية العامة لوسائل الإنتاج ، ومثلما أكد الآلوسي لا مندوحة من العرض التاريخي للمراحل التي مرت بها المجتمعات وانعكاساتها على علاقات الأفراد وسلوكهم فيما بينهم ، والتبدلات الحاصلة في الأخلاقيات نتيجة هذه التحولات[٣٠].

بعد أن عرض الآلوسي المجتمعات الإنتاجية المختلفة والإخفاق السائدة فيها والقائمة على أساس إنتاجي كعلاقة الإقطاعي بالقن أو السيد المالك بالعبد أو البرجوازي الرأسمالي بالعامل يأتي هنا ليعرض مراحل الفكر الكبرى وتطور الأخلاق فيها أفقياً وعمودياً مؤكداً على دور السحر والقوى الغيبية في سلوك الإنسان التي يسودها الاعتقاد بمعاقبة الأرواح والرموز التي تمثل الأرواح في عالمنا المادي في المرحلة الأولى من مراحل الفكر البشري ، ثم مرحلة الحس المشترك أو المسؤولية العامة وفيها بدأ الإنسان بالتمييز بين الأشياء والوصول إلى قواعد عامة في الأخلاق ، ثم مرحلة التصورات أو التفكير التأملي المنظم ويمكن أن يؤرخ لبدايته في القرن الثامن قبل الميلاد وصولاً إلى القرن السادس عشر الميلادي والذي معه بدأت المرحلة الرابعة والتي تسمى بالمرحلة الحديثة وفيها ساد العلم بمناهجه الرئيسة وما للعلم من دور في الأخلاق ، ولم يفت الآلوسي الحديث عن أخلاقيات الديانات الثلاث الكبرى اليهودية والمسيحية والإسلام[٣١] .

أما عن علاقة الأخلاق بالدين فإن الآلوسي في حديثه عن الأخلاق والدين لا يرى ترادفاً بينهما على الرغم من وجود صلة بينهما ، فلكل دين أخلاقه بالمقابل يؤكد الآلوسي إمكان قيام أخلاق بلا دين ، فإنه يرى أن بعض أخلاقيات دين ما تعد لا أخلاقية بالنسبة لمرحلة أخرى أو حتى لدين آخر ، كما أن التدين يشجع أحياناً الغضب على الذين يعتقدون بعقيدة أخرى أو يتمسكون بالمراسيم الظاهرية التي تبعث على النفاق ، وينتهي الآلوسي من ذلك بقوله : إن الدين والأخلاق ليسا ملتحمين ، بل مستقلان ، فنحن يمكن أن نكون متدينين دون أن نكون أخلاقيين والعكس صحيح ، فالكافر الذي يعيش عيشة فاضلة ليس

مخلوقاً خارقاً للطبيعة ، لأن يعيش كافر حياة فاضلة ليس أغرب من أن يرتكب متدين كل أنواع الجريمة[٣٢].

وفي هذا السياق يقول الآلوسي ((على إنني مقتنع بما يجول في ذهن القارئ من أنه لا يمكن لكافر أن يحقق الفضيلة كما يراها المتدين المؤمن إلا بحدود مشتركة تضيق أو تتسع وكذلك فإن المؤمن لا يمكن أن يكون خلقياً بنفس مفهوم الخلقية عند الكافر إلا بحدود معينة وهذا الحد المشترك مثل الإخلاص في العمل هو الذي يجعل المؤمن يعبِّر عن إعجابه بأخلاق كافر ما مع شعور بالأسف والتمني ، الأسف لأنه رغم أخلاقيته لا يشاركه نعمة الإيمان ، والتمني بأن تكمل أخلاقيته بالإيمان ، واعتقد أن نفس الشعور بالإعجاب والأسف والتمني يخالج الكافر وهو يلاحظ أخلاقية مؤمن ما ولكن بشكل معكوس))[٣٣].

ومرة ثانية يثبت الآلوسي أن الأخلاق نسبية وأن العقل متغير ومتطور من خلال عرضه لفكرة المطلق في الأخلاق متقصياً جذورها من سقراط وأفلاطون حتى هيجل مستعيناً بجون لويس في تقصيه للجذور التاريخية للمثالية ، مقدماً الأسباب التي دعت إلى ظهور مثل تلك الأفكار من خلال تبنيه لوجهة نظر ديوي في المسألة ولم يفت الآلوسي أن يقدم عرضاً للأخلاق عند كنت وفكرته عن الواجب وتأكيده على إطلاقية الضمير الذي يقف وراء القيم الأخلاقية[٣٤] .

بعد ذلك يقدم الآولسي الردود التي يراها مناسبة ضد القائلين بفطرية الضمير والقيم المطلقة ، مؤكداً على نسبية الضمير وتغيره عبر الزمان والمكان ، ومن الأمثلة التي يضربها بهذا الشأن ومما كان يروى : أن مخلوقين مسكينين سيعدما في فرنسا لأنهما أكلا لحماً في الصوم الكبير عند المسيحيين[٣٥] ، وغيرها من الأمثلة العديدة التي يوردها الآلوسي والممارسات العديدة التي كانت تمارسها الشعوب في الماضي وتعدها قيماً أخلاقية لا يمكن تجاوزها والآن أصبحت في خبر كان ، كما يقدم الآلوسي رداً ثانٍ على القائلين بفطرية الضمير يرى به : إن الضمير وليد اجتماعي النشأة ، أي إنه مكون اجتماعي يتكون عبر النشأة ويختلف من شخص لآخر حسب الاختلاف في التنشأة الاجتماعية ، إذ يعتمد الآلوسي في قوله بنسبية الضمير على النظريات التي جاء بها علم النفس وعلم النفس الاجتماعي لينتهي به القول بنسبية الضمير أو الواجب أو الوازع الأخلاقي[٣٦] .

من خلال ما تقدم يصل الآلوسي إلى نتائج ترتبت على نقده للقائلين بمطلقية الأخلاق إذ يقول ((يمكن إجمال النتائج المترتبة على عرضنا السابق بما يلي :

أولاً : أصبح واضحاً أن إدعاء بعض المدارس المثالية وجود ضمير فطري في كل إنسان ، ضمير غير مكتسب أو ما يسمونه أحياناً بالحاسة السادسة التي هي كحاسة البصر والسمع ووظيفتها تمييز الخير والشر بالفطرة ، هو إدعاء تبطله الحقيقة التي وضحت من خلال وصفنا لفكر الإنسان وأخلاقه وقوانينه

عبر العصور ، وهي أن أحكام الإنسان ومقاييسه وفكرته عما هو خير أو شر وطرق معاملته لها والتخلص منها ، ومقاييس الأخلاق ، كل هذه أمور نسبية متبدلة ، متطورة ، وهي تابعة لمستواه العقلي ونوعية المجتمع والمرحلة التي يعيش فيها .

ثانياً : قيم الأخلاق ، كالعدل والصدق والمساواة ليست أزلية بل نشأت تدريجياً وقد بدأ الإنسان من مستوى الحيوانات العليا ، ولكن عن طريق التعاون والعمل واللغة والذاكرة وتجمع الخبرة ومحاولة الخطأ والصواب ، أتسع فكره وتبدلت وتطورت قيمه ونظمه وأخلاقه عمودياً ، أي من الطاعة العمياء الآلية للعرف إلى السلطة الخارجية ، فالضمير الفردي أو مستوى الوعي ، وتطورت أفقياً كذلك ، من نطاق العائلة أو العشيرة إلى أخلاق قومية أو إقليمية أو على نطاق الأمة ثم إلى الأخلاق العالمية . وباختصار فإن لكل مجتمع رعوي أو زراعي أو صناعي قيمه ، كما أن تصور الإنسان وتحديده لمضمون هذه القيم يختلف زماناً ومكاناً لاعتبارات أخرى كثيرة مثل المستوى العقلي العام ، وحتى حين يبدو أن قيمة ما مثل العدل موجودة في مجتمعين رعوي بدائي وصناعي متمدن مثلاً فإن المعنى مختلف تمام الاختلاف بينهما والمشترك هو التسمية أو اللغة فقط .

ثالثاً : في تطور الإنسان وتطور قيمه وتشريعاته كان يشخص أيضاً آلهته ، وينسب لهم تطوراته ومستواه وبالتدريج عمل على خلق عالم منفصل من الأفكار والقيم المطلقة أو المثل ، بجانب عالم الحس والمادة ، ولكن الإنسان في مرحلة متأخرة بعد ظهور الكتابة فما بعد أي في مرحلة التأمل والتصورات نسي أنها من صنع أسلافه ، وصار يعامل هذه القيم والأفكار كالمحبة والعدل ، أقول صار يعامل هذه وتلك تحت تأثير الإيحاء والتقليد والتكرار ، وليس التفكير والتجريب العلمي ، كموجودات قائمة بنفسها مستقلة عنه وعن الواقع الحسي ، ومن هنا ظهرت الثنائية بأجلى صورها وأتجه التفكير في خطه المثالي التجريدي في طريق مسدود ، لا علمي ، حصل ذلك على يد الميثولوجيا ، والفلسفة المثالية ابتداء بسقراط وأفلاطون وأرسطو والمثاليين الآخرين بعدهم))[٣٧] .

نصل إلى الجزء الأخير من كتاب الآلوسي (التطور والنسبية في الأخلاق) والذي تضمن قوله بنسبية الأخلاق بعد أن دحض الإطلاقية والمثالية في الأخلاق مورداً نصوصاً للقائلين بنسبية الأخلاق ومنهم : وليم جيمس وجون ديوي وويست مارك وغيرهم ، معززاً رأيه وقناعته بنسبية الأخلاق المحكومة بمنطق التطور ، مؤكداً على أن القول بنسبية الأخلاق أمر شائع اليوم مورداً أسباب التحول من الأخلاق المثالية التي ترى بأن قيمنا الأخلاقية مصدرها خارجي ، فنحن نستلهمها عن طريق المطلق الذي أخذ صوراً وتفسيرات لا حصر لها إلى الأخلاق النسبية التي تؤكد على أن قيمنا الأخلاقية مستمدة من المجتمع من بيئتنا وتنشئتنا الاجتماعية لذا فهي متغيرة وفقاً لتغيرات الزمان والمكان وأن أسباب هذا التحول كما أوردها

كريسون هي : تناقض نصوص الدين المسيحي واليهودي وتناقض الفلسفة المشيدة على الدين فضلاً عن التقدم الذي حدث في الأبحاث الاجتماعية وسلوك رجال الدين كل هذا أدى إلى القول بنسبية الأخلاق بعد أن سادت فكرة المبادئ المطلقة والثابتة في الأخلاق لقرون عديدة ، ويضيف الآلوسي سبباً آخر إلى هذه الأسباب وهو : ظهور نظرية التطور إلى جانب الكشوفات العلمية ، إذ كان لنظرية التطور والاكتشافات العلمية أثراً كبيراً في إحلال النسبية محل الإطلاقية في الأخلاق ، لكن النسبية كما يراها الآلوسي لا تعني النسبية المطلقة كما أن القول بها لا يعني إلقاء التعقل كما إنها لا تعني المراوحة في مستوى واحد على العكس من ذلك فنسبية الآلوسي متقدمة إلى الأمام لا تعرف التقهقر إلى الوراء ولا تعرف الثبات في مستوى واحد[٣٨] .

هذا كل ما يمكن أن يقال عن كتاب (التطور والنسبية في الأخلاق) لحسام الآلوسي ، فبعد كل الذي قيل ، وجدنا باحثاً ومفكراً متعمقاً يعي ما يكتب ، أميناً وجاداً ، ملتزماً بالمنهج العلمي الحديث التزاماً تقضي منه العجب العجاب ، ولا غنى لأي باحث في الأخلاق عامة وفي الأخلاق التطورية منها خاصة إلا الرجوع لكتاب الآلوسي في الأخلاق النسبية والتطورية على الرغم من هذه الطريقة المتخمة بالنصوص والأسلوب الأكاديمي الخانق أحياناً ، لكننا في الصفحات العشر الأخيرة من هذا الكتاب نجد أسلوباً آخر ، نجد الآلوسي الإنسان الحالم الرومانسي بعيداً عن الآلوسي الباحث المتعمق ، فإنك في هذه الصفحات العشر الأخيرة تعي مدى اهتمام الآلوسي بقضايا الإنسان عامة والمسحوق خاصة ، تعي مدى الهم الذي يحمله الآلوسي ، فصار مما لا جدال فيه أن الآلوسي مهموم هماً لا حد له مهموم بما يعاني الإنسان من فقر ومرض وجوع وتشريد ، ومما مرَّ به من كوارث طبيعية وكوارث بشرية وما عانى من آلام وأوجاع وحروب ومجاعات ، لا بل أني أكاد أجزم أن هذا الهم يقف دافعاً أساسياً وراء معظم ما كتب الآلوسي وما سيكتب ، على الرغم من عدم انتماء الآلوسي للطبقات العمالية أو الفلاحية أو للطبقات الفقيرة في المجتمع ، فإنه لا ينتمي لأي طبقة من هذه الطبقات ، لكنه بالمقابل يشعر ويعاني ما تعانيه هذه الطبقات في كل بقاع الأرض أكثر مما يشعر ويعاني به من ينتمي إلى هذه الطبقات .

ظل الآلوسي متمنياً حالماً بعالم أفضل من هذا العالم الذي نعيش فيه ، ونحن لا نملك إلا الحلم الأمنية ، نحلم في عالم غير العالم الذي نعيش فيه ونتمنى تاريخاً غير التاريخ الذي نحن فيه ، فنحن نواطئ هذا التاريخ الحربي المجنون بأجسادنا فقط وأرواحنا وعقولنا تنتمي لتاريخ آخر ، تاريخ يُنصف فيه الجميع على حد سواء ، تاريخ تختفي فيه مظاهر الفقر والمرض والجوع ، تاريخ سلام وأمن وطمأنينة ، لكنك مرة أخرى تلمس تفاؤلاً لدى الآلوسي خصوصاً في المرحلة التي كتب فيها كتابه هذا ، فهل تحولت طموحاته وتفاؤلاته بالمادية التاريخية من حيز الواقع إلى حيز الحلم ؟ في هذا العالم الذي تكشر فيه

الرأسمالية عن أنيابها وتعلن فيه سيطرتها الكاملة والمطلقة على العالم سياسياً واقتصادياً وعسكرياً ، في هذا العالم الذي أُعلن فيه عن انهيار أكبر راعٍ للاشتراكية ، في هذا العالم الذي نجد فيه أن الدول الرأسمالية أكثر اشتراكية في أدائها الحكومي من الدول الاشتراكية ذاتها ، قد يأمل الاشتراكيون خيراً من التجربة الصينية فلتكن عزاءهم الأخير .

الهوامش والمصادر المستخدمة في البحث

[1] يراجع : المحافظة ، علي ، الاتجاهات الفكرية عند العرب في عصر النهضة (١٧٩٨ – ١٩١٤) ، الأهلية للنشر والتوزيع ، بيروت ، ١٩٨٣ ، ط٤، ص٤٩-٥٥ .

• هذه المعلومات زود بها الباحث من قبل الدكتور حسام الآلوسي في لقاء خاص معه في قسم الفلسفة – جامعة بغداد .

⊗ هذه مقدمة سريعة وتمهيد خاطف لسيرة الآلوسي العلمية ، لمن يريد المزيد عليه مراجعة : الشيخ ، حسين ، أطروحة دكتوراه عن الآلوسي ومساهمته الفلسفية ، بغداد ، ٢٠٠٧ .

٢ التهاوني ، محمد أعلى بن علي ، كتاب كشاف اصطلالحات الفنون ، دار صادر ، بيروت ، المجلد الأول ، ص٤٤٩ .

٣ عادل العوا ، الموسوعة الفلسفية العربية ، تحرير : معن زيادة ، مركز الإنماء القومي ، المجلد الأول ، ط١ ، ١٩٨٦ ، ص٣٩ .

٤ صليبا ، جميل ، المعجم الفلسفي ، دار الكتاب اللبناني – بيروت ، دار الكتاب المصري – القاهرة ، ١٩٧٨ ، الجزء الأول ، ص٥٠ .

٥ لالاند ، أندريه ، موسوعة لالاند الفلسفية ، منشورات عويدات ، بيروت – باريس ، المجلد الأول ، ط١ ١٩٩٦ ، ص٣٧٠ .

٦ المصدر نفسه ، ص٣٧١

٧ بدوي ، عبد الرحمن ، الأخلاق النظرية ، وكالة المطبوعات – الكزيت ، ط٢ ، ١٩٧٦ ، ص تنبيه .

٨ الزين ، غسان ، الموسوعة الفلسفية العربية ، تحرير : معن زيادة ، ص٢٦٩ .

٩ لالاند ، أندريه ، موسوعة لالاند الفلسفية ، ٣٧٨، ٣٧٩ .

١٠ رسل ، برتراند ، حكمة الغرب ، ترجمة : فؤاد زكريا ، عالم المعرفة – الكويت ، الجزء الثاني ، ١٩٨٣ ، ص٢٢٥ .

١١ الحفني ، عبد المنعم ، الموسوعة الفلسفية ، دار ابن زيدون – بيروت ، مكتبة مدبولي - القاهرة ، ط١ ، ص١٧٨ .

١٢ كرم ، يوسف ، تاريخ الفلسفة الحديثة ، دار المعارف بمصر ، ١٩٥٧ ، ص٣٤٨-٣٤٩ .

١٣ كرم ، يوسف ، تاريخ الفلسفة الحديثة ، ص٣٤٩ .

١٤ ول ديورانت ، قصة الفلسفة من أفلاطون إلى جون ديوي ، ترجنة : فتح الله محمد المشعشع ، مكتبة المعارف – بيروت ، ط٤ ، ص٤٨٨ .

[15] الآلوسي ، حسام ، التطور والنسبية في الأخلاق ، دار الطليعة للطباعة والنشر ، بيروت ، ١٩٨٩ ، ط١ ، ص٥ .

[16] المصدر نفسه، ص٦

[17] ينظر : الآلوسي ، حسام ، التطور والنسبية في الأخلاق ، ص٨ .

[18] المصدر نفسه ، ص١١ .

[19] المصدر نفسه ، ص١١-١٢ .

[20] المصدر نفسه ، ص١٢-١٣ .

[21] يراجع ، الآلوسي ، حسام ، محاضرات في تاريخ الفلسفة الإسلامية ، مخطوط تحت الطبع .

[22] ينظر : الآلوسي ، حسام ، التطور والنسبية في الأخلاق ، ص١٣-١٥ .

[23] المصدر نفسه ، ص١٥-١٦ .

[24] المصدر نفسه ، ص١٧ .

[25] المصدر نفسه ، ص١٧ .

[26] الآلوسي ، حسام ، التطور والنسبية في الأخلاق ، ص٢٠ .

⊗ لمن يريد الإطلاع على عرض الآلوسي للأخلاق عند الوضعية المنطقية المعاصرة والبرجماتية مراجعة : المصدر نفسه ، ص٢٠ ، ٢١ ، ٢٢، ٢٣ .

[٢٧] ينظر ، المصدر نفسه ، ص٢٣-٣٠ .

[٢٨] المصدر نفسه ، ص٣٠ .

[٢٩] الآلوسي ، حسام ، التطور والنسبية في الأخلاق ، ص٣٤ .

[٣٠] ينظر ، المصدر نفسه ، ٣٧-٥٥ .

[٣١] ينظر : المصدر نفسه ، ص٥٥-٨٢ .

[٣٢] الآلوسي ، حسام ، التطور والنسبية في الأخلاق ، ص٨٠-٨١ .

[٣٣] المصدر نفسه ، ص٨١ .

[٣٤] ينظر : المصدر نفسه ، ص٨٢-١١٢ .

[٣٥] المصدر نفسه ، ١١٢ .

[٣٦] يراجع : المصدر نفسه ، ١١٢-١٢٦ .

[٣٧] الآلوسي ، حسام ، التطور والنسبية في الأخلاق ، ص٨٣،٨٤ .

[٣٨] : الآلوسي ، حسام ، التطور والنسبية في الأخلاق ، ص١٢٦-١٣٩ .

خلاصة البحث

حاولنا في هذا البحث التعرف على طبيعة الأخلاق عند الآلوسي ، ثم وقفنا وقفة مع تمهيد لمفهوم الأخلاق في اللغة ، كما حاولنا تحديد طبيعة الأخلاق التطورية والتي امتازت بالنسبية والتغير، وتبقى محاولة الآلوسي كجزء من النتاج الأخلاقي في الفكر العربي المعاصر والذي يصب ضمن مسار تبني النظريات الأخلاقية التي جاءت بها المدارس في أوروبا ، فجاءت آراء الآلوسي منسجمةً مع تبنيه للماركسية نظرية وتطبيق .

Abstract

This paper tries to introduce the nature of ethics in Alaloosi thought . There is also an introduction to the concept of ethics in language . Besides , we have tried to define the nature of the evolutional ethics that distinguish to change and relativity . Stay this attempt as part from ethical stadies.in contemporary Arab thought . Most this thoughts was influence by Marxism .